منزل للبيع

للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه

بقلم الأستاذ أنور لوقا

وراء تلك اللافتة الصغيرة المبتذلة المعلقة على باب بيت من البيوت ، قرأ ألفونس دوديه — وهو الذى لقب نفسه « بالشيء الصغير » واستلهم اشياء أدبه — هذه المأساة الانسانية المؤثرة .

فوق الباب ، باب خشبي واهي المفاصل ، يدع رمل الحديقة الصغيرة يختلط بتربة الطريق على بسطة من الأرض ، كانت لافتة معلقة منذ أمد بعيد ، ساكنة فى شمس الصيف ، معذبة بعكوف ريح الخريف ، عليها « منزل للبيع » ، ولعلها كانت تقول أيضا « منزل مهجور » ، فقد كان الصمت يكتنف الدار .

ولكن أمرأ كان يقيم هناك . فإن دخانا خفيفا مزرقا يصعد من آجر الدخنة الذى يعلو الجدار قليلا ، كان ينم عن حياة خفية ، متكتمة ، حزينة كهذا الدخان الذى ينبعث من نار الفقراء . ثم من خلال ألواح الباب المزعزعة ما كنت تحس الإهمال والخواء ، وهذا الجو الذى يسبق ويعلن بيعا أو رحيلا ، بل ترى ممرات الحديقة مستقيمة التخطيط ، وعرائش مستديرة مشذبة ، وماقى بجوار الحوض ، وأدوات بستانى مسندة إلى البيت الصغير . لم يكن ذلك الربع سوى بيت من بيوت الفلاحين ، يتوازن على هذه الأرض المنحدرة بسلم صغير قد نحى الطابق الأول جهة الظل والطابق الأرضى جهة الجنوب . ومن تلك الجهة كان يخيل إليك أنه معمل من معامل الإنبات . فقد رصت على درجات السلم نواقيس زجاجية ، وأصص فارغة مقلوبة ، وأخرى منضودة على الرمل الأبيض الساخن قد نما فيها « الجيرانيوم » و « العرفين » بيد أن الحديقة كلها ، فيما عدا شجرتين او ثلاثا من شجر السرج الفارع ، كانت تحت وهج الشمس . وكانت تمتد فى النور الساطع مروحة من أشجار الفاكهة ، قائمة على أسلاك حديدية ، أو مفرشة وقد انتزعت بعض أوراقها إعدادا للثمرة ليس غير ، كما اصطفت أيضا أغراس من الشليك وأغراس من البازلاء تتسلق قضبانا طويلة مثبتة فى الأرض . وفى وسط هذا كله ، وسط هذا النظام وهذا الهدوء ، كان رجل عجوز ، ذو قبعة من الخوص ، يجوس خلال المسالك طول النهار ، يروى فى الساعات الرطيبة ، ويقتطع ويشذب الأغصان ويسوى الأفاريز .

هذا الشيخ لم يكن يعرف أحدا فى البلد . لم يكن يطرقه زائر قط . اللهم إلا عربة الخباز التى كانت تقف بكل باب فى شارع القرية الوحيد . وأحيانا كان يرى اللافتة عابر من الناس يلتمس قطعة من أراضى السفح هذه الفنية الخصبة التى تمنح بساتين جميلة فيتوقف ليقرع الباب . يقرع فى أول الأمر فإذا البيت أصم . ثم يقرع ثانيا ، فيدنو من أقصى الحديقة وقع « قبقاب » فى بطء وتؤدة ، ويوارب الشيخ بابه وهو متجهم الوجه :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل المنزل للبيع ؟

فيجيب الرجل الطيب القلب فى جهد :

ـ نعم ... ولكنى أقول لك مقدما إنهم يطلبون فيه ثمنا غاليا جدا ...

وكانت يده المتأهبة لإغلاق الباب تسده عليك — وكانت عيناه تطردانك ، فما أشد ما كانتا تظهران من سخط ، وكان يظل هناك قائما كالفارس على حراسة أحواضه وخضره وفنائه الصغير المفروش بالرمل . وإذ ذاك كان الطارقون يتابعون سبيلهم وهم يسائلون أنفسهم من تراه يكون هذا المخبول الذى عرضوا له ؟ وأى جنون هذا الذى يحمله على الإعلان عن بيع منزله بهذه الرغبة الملحة فى الاحتفاظ به .

وأخيرا وضح لى هذا السر . ذات يوم وأنا مار أمام البيت الصغير ، سمعت أصواتا ثائرة ، وصخب مناقشة حامية .

يجب البيع يا أبانا ، يجب البيع . لقد وعدت بذلك وسمعت صوت الأب متهدجا يقول : إنى يا أولادى لا أطلب أفضل من البيع ... أما ترون القد وضعت اللافتة . وهكذا علمت أن هؤلاء هم أبناؤه وكناته ، تجار من صغار أصحاب الحوانيت فى باريس ، يحملونه على أن يتخلص

من هذا الركن الحبيب . لأى سبب ؟ هذا ما كنت أجهله . أما المؤكد فهو أنهم بدأوا يلمسون أن الأمر قد طال وأن الشيخ يماطلهم . ومنذ ذلك الوقت أقبلوا بانتظام يوم الأحد من كل أسبوع ، يستهضون الرجل المسكين ويحثونه على أن ينجز وعده ومن الطريق فى هذا الصمت المريض الذى يسود القرية يوم الأحد ، حين تستريح الأرض ذاتها من كونها قد حرثت وبذرت طوال الأسبوع ، كنت أسمع ذلك جليا . كان التجار الصغار يتحدثون ، ويتجادلون فيما بينهم وهم يلعبون لعبة « البرميل » ، وكانت كلمة « النقود » ترن رنينا جافا كهذه الأقراص المدنية التى يقذفونها . وفى المساء كان الجميع يرحلون ، وكان الرجل الطيب القلب ، بعد أن يرافقهم فى الطريق بضع خطوات ، يعود مسرعا فيغلق من جديد بابه الغليظ سعيدا مبتهجا ، وقد ظفر بعطلة لمدة أسبوع . ويستعيد البيت سكونه ، ويظل ساكنا ثمانية أيام ، فما تسمع فى الحديقة الصغيرة التى تلفحها الشمس إلا صوت الرمل يسحقه وطء قدم ثقيلة أو تجرفه المجرفة .

على أنهم من أسبوع لأسبوع ، راحوا يضيقون الخناق على الشيخ . ولم يدخر صغار التجار وسيلة من الوسائل . أحضروا الأحفاد لإغرائه : « أترى ياجدنا ، حين يباع البيت ستأتى لتسكن معنا . وكم سنكون سعيدين معا ! ... » ثم كانت أحاديث منفردة يلقيها كل امرىء لنفسه فى ركن من أركان البيت على حدة ، وسير خلال ممرات الحديقة لا يقف عند حد ، ومسائل حسابية يجريها صوت مرتفع . ومرة سمعت إحدى البنات تصيح :

— هذا الخص لا يساوى مائة دانق ... إنه خليق بأن يهدم .

وكان الشيخ يصغى دون أن يقول شيئا . كانوا هم يتكلمون عنه كأنه قد مات ، وعن داره كأنها قد هدمت بالفعل . فكان يتجنبهم ويمشى ، أحدب الظهر ، والدموع ملء عينيه ، ملتمسا كعادته غصنا يشذ به أو ثمرة يعنى بها أثناء مروره . وإنك لتحس أن حياته قد تغلغلت جذورها فى هذا الركن الصغير من الأرض تغلغلا لن يبعث فيه القدرة على اجتثاث نفسه منه . والحق أنه كان مهما افتنوا فى إغرائه ، يرجىء دائما لحظة الرحيل . فى الصيف ، حين تنضج هذه الثمار التى يوحى إليك مذاقها الحامض ببعض الشىء بأن السنة ما زالت فى نضرتها وريعانها ، ثمار الكرز ، والبرقوق ، والمشمش ، كان يقول :

لننتظر المحصول ... سأبيع بعده مباشرة .

وبعد المحصول ، بعد انقضاء موسم الكرز ، يأتى موسم الخوخ ثم العنب ، وبعد العنب تأتى ثمار « النيفل » السمراء الجميلة التى يكاد المرء يجنيها تحت الجليد . وحينئذ يأتى الشتاء ، فيسود الريف وتخلو الحديقة . الآن لا مارة ، ولا ثمراة ، بل ولا صغار التجار يوم الأحد ، وإنما ثلاثة أشهر عريضة من الراحة لإعداد البذار ، وتقليم أشجار الفاكهة ، بينما تتأرجح على الطريق اللافتة الباطلة وقد قلبها المطر والريح .

وعلى مر الأيام ، فرغ صبر الأبناء واقتنعوا بأن الشيخ كان يبذل كل ما فى وسعه لإقصاء المشترين ، فاتخذوا قراراً حاسما . قدمت إحدى الكنات واستقرت بجانبه ، وتلك امرأة صغيرة من نساء الدكاكين ، حالية منذ الصباح ، بارعة فى إظهار الحفاوة وتكلف الرقة والتلطف فى المجاملة براعة الذين اعتادوا التجارة . وكأن الطريق قد أصبح ملكها . فقد كانت تفتح الباب على مصراعيه ، وتتحدث وتلغو ، وتبتسم للمارة كأنما تقول لهم :

— أدخلوا ... أنظروا ... إن المنزل للبيع !

ولم تمد للشيخ المسكين مهلة بعد ذلك . أحيانا كان يحاول أن ينسى أنها هناك ، فينصرف إلى تقليب حياته وبذرها من جديد ، كهؤلاء الناس الذين يوشكون على الموت ويحبون القيام بمشروعات ليخدعوا مخاوفهم . ولكن البائعة كانت تتبعه طيلة الوقت وتنغص عليه . — دع ! ما انتفاعك بهذا ؟ ... أمن أجل سواك تجشم نفسك كل هذا التعب ؟ فما كان يجيبها وإنما كان ينكب على عمله فى عناء غريب . إن ترك حديقته لمنبت الاهمال معناه فقدانها بعض الفقدان منذ ذلك الوقت ، وبدء انفصاله عنها . ولهذا ما كنت تجد فى الممرات عودا واحدا من العشب ، ولا فى شجيرات الورد فصنا طفيليا .

وظل البيت معروضا للبيع ، ولكن الشراة لم يتقدموا .

ذلك أن الحرب قد نشبت . وعبثا ثابرت المرأة على فتح بابها وإرسال النظرات المحولة إلى الطريق ، فلم يكن يمر غير النازحين من الأرض ولم يكن يدخل إلا الغبار . واشتد غيظ السيدة من يوم إلى يوم ، لا سيما وقد كانت أعمالها في باريس تستدعيها . كنت أسمعها توسع حماها لوما وتأنيبا ، وتقسو في الهجوم عليه وتخبط الأبواب ، وأما الشيخ فكان يحنى ظهره دون أن يقول شيئا ، ويتعزى إذ يبصر بازلائه الصغيرة تنمو ، واللافتة معلقة في مكانها دائما : « منزل للبيع » .

وفي هذا العالم ، عندما وصلت إلى الريف ، وجدت المنزل وعرفته ! ولكن واحسرتاه لم تكن اللافتة هناك ! كانت إعلانات ممزقة بالية لم تبرح عالقة بأوجه الجدران . لقد قضى الأمر ، وباعوه ! ... وفي مكان البوابة الرمادية الكبيرة أصبح باب أخضر ، حديث الطلاء ، تعلوه عتبة مستديرة ، وتنفتح فيه نافذة ذات قضبان ، نلوح من ورائها الحديقة . ولم تعد الحديقة ذلك البستان الذي كنت أعهده هناك قديما ، بل غدت خليطا (بور جوازيا) من السلال ، والخضرة ، ومساقط الماء ، وصورة لهذا كله تنعكس على كرة معدنية تتأرجح أمام الدرج . وفي هذه الكرة ، بدت الممرات صفوفا من الأزهار الزاهية ، وامتد شكلان في كثير من المبالغة والتهويل ، رجل سمين أحمر ، غارق في عرق غزير ، غائص في كرسي من كراسي النزهة الخلوية ؛ وسيدة ضخمة لاهثة الأنفاس ، تصيح وهي تلوح مسقاة بيدها .

– لقد دفعت ثمنا للبلسمين أربعة عشر !

وكانوا قد شيدوا طابقا ، وجددوا السياج ، وفي هذا الركن الصغير المتطرف ، الذي مازالت تفوح منه رائحة الطلاء ، كان (بيانو) يعزف ملء الريح مقطوعات صاخبة مبتذلة وألحانا جذلة مما ترده جلبات الرقص العامة . وهذه الأنغام الراقصة التي كانت تنطلق إلى الطريق نابضة حارة ، مختلطة بقتام يوليه الكثيف ، وعجيج تلك الأزهار الضخمة ، والسيدات الضخمة ، هذا المرح الغامر الفياض ، هذا المرح السوقي المبتذل ، كان يقبض قلبي . كنت أفكر في الشيخ المسكين الذي كان يتمشى هنا راضيا وادعا سعيدا ، ثم أتمثله في باريس ، وقبعة الخوص على رأسه ، وحدبة البمعاني للعجوز في ظهره ، هائما في غور دكان ما ، ضيقا بأمره ، جبيا ، مشحونا بالدموع ، بينما تتبوأ زوجة ابنه الظافرة خزانة جديدة ، ترف فيها قطع ذهبية هي ثمن البيت الصغير .

أنور لوقا

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بمكاتب حضرات أطباء أول المستشفيات الآتية لغاية الساعة الثانية عشر ظهر يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٠ لتوريد الأغذية اللازمة لهذه المستشفيات لعام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ وهى :

الانكلستوما رقم ٢٢ بالجيزة — العياط الواسطى — إطسا فيوم — مغاغة — السفكرية — سمالوط — بنى مزار — البلينا — قوص — عتيبة — القصير — شبرا الخيمة — أجا — إنشاص — دسوق — الطيبة بنبروه — فوه — الرمد والانكلستوما بأبى كبير شرقية — الانكلستوما ـ ٤٠ بديرب نجم — زاوية الناعورة — تلا — الانكلستوما ٣٩ بطوخ — الانكلستوما ٢٤ بإتياى البارود شبين القناطر .

وتطلب قوائم الناقصات من المستشفيات نفسها على ورقة تمغة فئة ثلاثين مليما وثمن كل قائمة ٢٥٠ مليم للنسخة الواحدة مضافا إلى ذلك مبلغ ثلاثين مليما أجرة البريد .

٤٢٤٩